المحاضرة الثانية : خصوصيات النص السردي العربي:

عند العودة لقراءة التراث الأدبي والفكري ومحاولة التعمق فيه ، يتبين لنا أنّ له مجموعة من الخصائص والسمات ينفرد بها بالمقارنة مع الأعمال الأدبية الأخرى ، أو بالأحرى الموروث الثقافي الذي عرفت به الحضارات المجاورة كالفارسية واليونانية والهندية ، وانفرادية عن التراث السردي العربي الحديث والمعاصر وعليه يمكننا أن نقدم بعض خصائص هذا السرد العربي القديم.

1 – أنماط السرد العربي :

نذكر هنا نمطان " الذاتي والموضوعي " :

1 -1 : السرد الموضوعي :ويقصد بهذا النوع دور الرواي في صنع البنية السردية وذلك بتحريك العناصر داخل الرواية كوصف الحدث ومكوناته وايقاف زمن الاحداث أو ايصالها وغيرها[1].

1 -2 : السرد الذاتي : في هذا النوع من السرد نجد أنّ الروائي يعطي للشخصية دورا فعالا في مواجهة القارئ فنجدها تتحدث اليه دون قيود أو توجيه من الشخصيات الاخرى ، وهو قسمان ك سرد ذاتي خارجي : وفيه يقدم الروائي وصف شامل كاستنطاق حركة الجسد والوجه والعينين لدى الشخصيات أمّا السرد الداخلي فهو قريب من تيار الوعي ، وهذا السرد يخص رؤية الراوي لشخصيته ويكون بضمير المتكلم[2] .

2 - قواعد الكتابة السردية عند عبد الفتاح كيليطو :

يرى " عبد الفتاح كيليطو" في كتابه "الأدب والغرابة " أنّ معظم النصوص السردية التراثية التي وصلت إلينا تحكمها مجموعة من القواعد أو التقنيات اعتمد عليها الأديب في الرواية :

1.2– **تعلق السارد باللاحق** : وهو المعروف بالطابع الدائري ، ويقصد به اختيار امكانية مرتبطة بالمكانية التالية التي يصنها السارد ن أي الأولى تتطلب الثانية والعكس صحيح ، ويمكننا تفسيرها بقولنا لاوجود للامكانية التالية دون الولى ولا مكان للامكانية الاولى دون الثانية أي استحضار الأولى يتطلب وجود الثانية وهكذا الى ان نصل الى النهاية ، وبالتالي هذه الأخيرة تتحكم في كل ماسبقها إلى أن نعود من جديد إلى الإمكانية الأولى.[3]

2.2– ارتباط تسلسل الأحداث بنوع الحكاية :

يرى الناقد " عبد الفتاح كيليطو" أنّ النصوص الترثية السردية القديمة كثيرة ومتنوعة كالقصة والحكاية والسيرة وغيرها ، إذ أنّ هناك بعض الأشكال السردية تفرض منهجا معينا في الكتابة وضرب لنا مثلا بالمقامات في خصائصها وتقنياتها الفنية في الكتابة [4]اذ نجد هناك بطلا واحدا ، تدور أحداث القصة حوله بأسلوب متصنع بيانيا ، بالاضافة الى وجود راوي للقصة مثل "حدثنا عيسى ابن هشام"، فتسلسل الاحداث نجده مرتبطا بنوع الحكاية .

3.2- العرف أو العادة :

والمقصود بهذا أنّه يجب على السارد أن يحترم تقنيات السرد في كل شكل من أشكاله ، إذ يمكن أن نقول أنّ للقارئ معارف واطلاع على نظريات الكتابة السردية وبالتالي يمكن القول " على القائم بالسرد احترام هذه الاعتقادات الى حد أنّه يمكن أن يقال :إنّ القائم بالسرد الفعلي هو القارئ "[5] .

3 -تمظهرات خصائص السرد في التراث العربي القديم :

إذا توقفنا عند النصوص السردية العربية التراثية القديمة ، يتبين لنا أنّها باتت معروفة بتقنيات خاصة تختلف باختلاف الاشكال السردية ،فإذا تصفحنا أمّهات الكتب كالليالي والسيرة النبوية لابن هشام والمقامات وغيرها وجدناها تتسم بخصائص ومميزات تستحضر في كل نص ابداعي وسنذكرها كالتالي :

1.3عبارة زعموا[6] :

تشتغل معظم النصوص السردية التراثية على آلية الإسناد إذ نجدها في بدية كل عمل أدبي تراثي ، بحيث يحرص الاديب على توظيفها وتباثها طيلة المسار السردي ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر "بلغني ، زعموا ، حثنا ، قال ، روى ، وعيرها ، ولعل السبب الحقيقي في توظيف هذه التقنية هو الحرص على صدق القول وحقيقة الحدث .

يرى بعض النقاذ أنّ " عبد الله بن المقفع " في كتبه كليلة ودمنة هو أوّل من اصطنع هذه اللغة السردية فقط كرر صيغة " زعموا" طيلة المسار السردي للنص ، وحدثنا "عيسى بن هشام " في المقامات الحريرية ،وصيغة "بلغني أيها الملك السعيد في " الليالي" هذه الخاصية إذا عدنا وتقفينا أثرها لوجدناهامرتبطة بالأحاديث النبوية الشريفة والتي توحي بصدق النبي صلى الله عليه وسلم كما نجد هذه الخاصيةبقد اتضحت بصفة جلية في السيرة النبوية لابن هشام والذي حرص على ذكر السند كما ورد في السنة النبوية كقوله مثلا " روى ابن هريرة " .

2.3التضمين الحكائي[7]:

معظم النصوص السردية التراثية تشتغل على آلية التضمين الحكائي ، والمقصود بهذه التقنية في السرد هو وجود حكاية اطارية أساسية في العملية السردية تتفرع عنها قصصا أخرى أو حكايات قصيرة ، أي يمكن أن نقول وجود حكاية هي النواة الاساسية في العملية السردية تتخللها قصصا وحكايات أخرى متداخلة ومتسلسلة متفرعة عنها ،

ويتضح هذا جليا في حكايات " الليالي" أونصوص "ألف ليلة وليلة" إذ نجد كل حكاة تقودك الى حكاية أخرى بحيث تأتي متسلسلة ومتناسلة ، كما نجد هذه الخاصية السردية في مؤلف " كليلو ودمنة" والذي تتمحور أحداثه بين ا"دبشليم " وبيدبا" تتخللها حكايات صغرى متضمنة يرويها بيدبا لدبشليم متخدا في ذلك حيلة التشويق والتحفيز.

3.3العجائبية :

يعرف العجائبي بأنّه " بناء لغوي ولقاء بين المألوف واللامألوف بين أدوات طبيعية وأخرى فوق طبيعية غيبية لإيجاد حالة من الزج بالواقعي بكل وضوحه الكاذب وأوهامه المغلقة في المأزق"[8] .

أي أنّ المقصود بالعجائبية هي مفارقة الواقع والارتحال الى عالم الخيال ، اذ نجد الكثير من النصوص السردية التراثية تضمنت تيمة العجائبية ، وهذا راجع الى أنّ هذه الأخيرة تتماشى الى حد كبير مع الثقافة الشفاهية ، التي كانت تقوم عليها الثقافة العربية

وبالتحديد عند "تودوروف" تقوم العجائبية على ثلاثة أسس هي

- حيرة القارئ
- الحدث الخارق
- المفارقة للواقع

- تتمظهر خاصية العجائبية في كثير من النصوص السردية وخاصة في الليالي

وذلك من خلال المزج بين الواقع والخيال والحقيقة والخرافة وتكسيرها للحدود الفاصلة بين عوالم الانس والجن ، وتتعامل مع الحيوان كما تتعامل مع الانسان والعكس بالعكس وقد يمسخ الانسان فيها حيوانا ويعود الحيوان انسانا كما كان ، وهي تكشف عن عوالم السحر والخوارق وترتقي بالمألوف الى المستوى العجيب والغريب[9] .

وفي نفس السياق تأتي "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري بزخم عجائبي مشحونا بالأشياء المفارقة للواقع والعقل وذلك من خلال رحلة خيالية انتقل بها السماء وبالضبط الى الجنة والنار ليقدم لنا بهذا رؤية مفارقة عجيبة غريبة لا معقولة ن وعلى نفس هذه الشاكلة نجد "رسالة التوابع والزوابع" لابن الشهيد والذي كانت وجهته هو الآخر الى عالم غير مرئي ألا وهو عالم الجن .

من خلال ماتقدم يمكننا القول أنّ مرجعية العجائبية في النصوص التراثية السردية قد تجدرت في النص القرآني والذي عرّف القارئ على عالم غير مرئي كحياة البرزخ وعذاب القبر والجنة والنار والملائكة وغيرها .

4.3الطلب الداخلي والخارجي:

إنّ المتتبع للنصوص السردية يجد نوعين من السرد

أ – الطلب الخارجي :

يمكن أن نحصره في مجموعة من الدوافع الخارجية المحيطة بالمؤلف والتي كانت تحفيزا للعملية الابداعية التأليفية في حد ذاتها ، وهذا الطلب مواجه أساسا للمؤلف إذ نلحظ هذا على سبيل المثال في كتاب الجاحظ ذلك من خلال تاليفه لكتاب " البخلاء" ،فقد ذكر المقدمة سبب التاليف إذ يقول :" ذكرت حفظك الله ، انك قرأـ كتابي في تصنيف حيل لصوص النهار ، وفي تفصيل حيل سراق الليل " .....وقلت أذكر لي نواذر البخلاء واحتجاج الأشحاء .."[10]

فمن خلال هذا القول يتبين لنا أنّ سسب تأليف هذا الكتاب كان وليد رغبة خارجية ، كما نجد في مقابل هذا هذا كتاب " الامتاع والمؤانسة " لأبي حيان التوحيدي ، فهو الآخر كان استجابة من المؤلف لرغبة أبي الوفاء المهندس كي يصف له مجالس الوزير بن سعدان الذي كان التوحيدي يسامره هذا بالاضافة رسالة الغفران لابي العلاء المعري والذي كان هو الآخر استجابة لرغبة " ابن القارح" في سماع تعقيب المعري .

ب- الطلب الداخلي :

على عكس الطلب الخارجي الذي كان وليد رغبة خارجية ، فإنّ الطلب الداخلي هو وليد رغبة داخلية في التأليف أي يتموقع ضمن البنية السردية للنص إذ يمكن أن نقول بأنّه فعل يتم قبل عملية التأليف والكتابة ، إذ نلحظ من خلال النصوص السردية التراثية كأل فليلة وليلة استجابة لرغبة "شهريار" لسماع ماتحكي "شهرزاد وإن لم يذكر هذا بطريقة صريحة ، حيت وردت عبارة " قالت دنيازاد لأختها شهر زاد أتمي لنا حديثك "

تتردد هذه الخاصية نفسها في "نص كليلة ودمنة" وفي باب " الأسود والثور" .انطلاقا مما سبق يمكن القول أنّ العملية السردية كانت جوابا عن سؤال أي تلبية لرغبة أو طلب وبهذا يكون المولود السردي موجه الى السلطة على شكل اهداء يوضع في مكتبة السلطة .

5.3تعددية الضمائر :

تنوعت استخدام الضمائر في النصوص السردية التراثية إذ تراوحت بين ضمير " الغائب ، المتكلم، المخاطب وسنبدأ بشرح كل واحد على حدى :

أ :ضمير الغائب [11]:

لقد أخد استعام هذا الضمير الحصة الكبرى في النصوص السردية التراثية ، وقد اصطلح عليه ب " الهو" العجيب كما ورد في كتاب "نطرية الرواية " لعبد المالك مرتاض ، وأرجع استخدام هذا الضمير للعديد من الأسباب منها :

- يعدّ تقني يتوارى وراءها السارد بحيث يمكن أن يصور العديد من الرؤى الفكرية والاديولوجية والتعليمية دون أن يبدي تدخله المباشر
- إنّ اصطناع هذا الضمير يمنع السارد من الوقوع في فخ الأنا بحيث يمكن أن يتبادر الى ذهن القارئ إلصاق سيرته الذاتية بالعمل الأدبي .

- انّ استعمالضمير الغائب يحمي السارد من الوقوع في الكذب واللاصدق بحيث يبقى مجرد سارد أو حاك لامؤلف ولا مبدع .

ب :ضمير المتكلم :

إذا تتبعنا الشريط السردي التراثي ، نجد أنّ الأنا اكتسح أهمية كبيرة في التعبير وذلك لأنّه يحقق جماليات نصية لا نجدها في غيره من الضمائر ينضاف الى هذا استعمال ضمير المتكلم كان له السبب المباشر والتاثير البالغ في ظهور وبروز السيرة الذاتية التي تعد شكلا من أشكال السرد العربي القديم ، اذ يرى النقاذ من جماليات استخدام هذا الضمير وجود مايسمى بالتصاق الروح الساردة مع العمل الادبي المسرود بحيث يصعب بينهما علاوة عن هذا فإنّ وجود هذا الضمير في العمل السردي يترك انطباعا عند القارئ بمشاروكة المؤلف في هذا العمل واعتباره جزءا منه .

ج :ضمير المخاطب :

لعل دور هذا الضمير في الشريط الروائي السردي هو تبليغي ، وبالتالي فانّ التنويع في استخدام هذه الضمائر يؤلادي وظيفة جماية لاغير وذلك من خلال اجراء تنويع في اللعبة السرلادية بحيث تبقى الاحدوثة المسرودة نفسها .